المرأة الخالدة

obeikandl.com

obeikandl.com

ان المراة التى اجتمعت لها خلاصة الرعاية فى آداب أمة من الأمم لذات شأن فى تاريخ قومها لا يسهو عنه باحث موكل بدراسة التاريخ أو دراسة الآداب

وأعظم من ذلك شأن المراة التى كتبت لها خلاصة الرعاية فى دين من الأديان ، والتى اشتركت فى سيرة النبى المرسل بذلك الدين ، ونقلت احاديثه فى احكام شريعته وخطرات ضميره ، ولقيت عنده الحظوة التى لم يلقها أحد من النساء

والسيدة عائشة رضى الله عنها هى هذه ، وهى تلك

هى المراة لوحظت فى آداب الأمة العربية كأنما استخلصت لها هذه الآداب لتظفر منها بالرعاية الأولى

وهى المراة التى قال عنها النبى عليه السلام انها احب الناس اليه ، وتلقى الأعقاب عنها مئات الأحاديث التى عرفوه بها فى دينه ودنياه

وكلاهما شأن عظيم يبوىء الانسان بين قومه مكانا ملحوظا من جوانب التاريخ

ولكن السيدة عائشة مع هذا وذاك تهم الباحثين والمؤرخين لسبب آخر غير هذين السببين ، او للسبب الآخر المتمم

لهذين السببين ، لأنها المرأة فى تكوينها الأصيل الذى خلقه الله منذ خلق حواء ، أو هى المرأة التى تتمثل فيها الأنثى الخالدة التى لا تحتويها أمة واحدة ولا يستأثر بها زمان واحد ، لأنها استمدت من طبائع الانسانية كل ما قدر لها من دوام

وهذا هو جانب الاهتمام الصميم بكل عظيمة وكل عظيم

فمهما يقل القائلون فى غرض المؤرخ من سير العظماء فالحقيقة التى لا ريب فيها عندنا هى أن الغرض الأول أو الغرض الذى تنتهى اليه جميع الأغراض هو توثيق الصلة بين الانسانية وبين عظمائها وعظيماتها والنفاذ الى الجانب الانسانى من كل نفس تستحق التنويه والدراسة

وما من علامة هى أصدق دلالة على السيرة الناجحة من هذه العلامة

فنحن نعلم أننا سائرون على الجادة فى التعريف بصاحب السيرة او صاحبتها اذا نظرنا فرأينا اننا قد وصلنا من تلك السيرة الى صميم الانسان

ونحن نعلم أننا تائهون فى الطريق اذا نظرنا فلم نجد بين أيدينا الا سرابيل العظمة واقواس النصر ومواكب الرهبة والخشوع

نحن اذا فهمنا النبى نبيا وكفى فانما وصلنا بين ضميره

وضمائرنا وبين محراب العبادة عندنا

ونحن اذا فهمنا البطل بطلا وكفى فانما وصلنا بين قدرته وقدرتنا وبين ضخامته بالقياس الينا وضآلتنا بالقياس اليه

ونحن اذا فهمنا الرئيس رئيسا وكفى فانما وصلنا بين مركزه فى الأمة ومركزنا وبين الحقوق التى له والواجبات التى عليه ، والحقوق التى لنا والواجبات التى علينا

ولكننا اذا فهمنا النبى انسانا فقد فهمناه كله وفهمناه على حقيقته التى تعنينا وتعقد له أواصر القرابة فيما بينه وبيننا ، لأننا وصلنا بين الانسان فيه والانسان فينا

وكذلك البطل ، وكذلك الرئيس ، وكذلك كل ذى شأن يستحق البحث فيه

هم غرباء حتى يقال : هذا هو الانسان ! فاذا هم الأقربون الذين ترضينا عظمتهم لأنهم منا ونحن منهم ، ولأنهم خالدون خلود الانسان من وراء الأقوام والأزمان

والسيدة عائشة رضى الله عنها مثل من أمثلة الأنوثة الخالدة فى جميع أقوامها وجميع عصورها

فضلها فى الكتابة عنها أنها كتابة عن تلك الأنوثة التى نلمحها حولنا ونلمحها من قبلنا فى كل انثى

وانها ترينا النبى فى بيته فترينا الرجل الذى ارتفع بالنبوة الى عليا مراتب الانسانية ، ولكنه مع هذا هو الرجل فى بيته

كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء

وفضلها على الجملة انك تقرأ من أخبارها ما تقرأ فلا تزال تقول بعد كل خبر ترويه هى او يرويه غيرها : اجل هذه هى الانثى الخالدة فى كل سمة من سماتها

هذه هى الانثى الخالدة فى غيرتها ، وهذه هى الانثى الخالدة فى دلالها ، وهذه هى الانثى الخالدة فى كل ما عرفت به الانثى من حب الزينة وحب التدليل والتصغير وحب التطلع وحب المكايدة والمناوشة ، ومكاتمة الشعور والتعريض بالقول وهى قادرة على التصريح

وكل لون من الوان الغيرة التى تتراءى فى طبيعة المرأة فهو باد فى خبر من اخبار السيدة عائشة ، كاوضح ما يبدو واصدق ما يكون فى طبائع النساء

والغيرة فى طبائع النساء الوان :

تغار المرأة على قلب الرجل الذى تحبه ولو شغلته الذكرى ولم تشغله المودة الحاضرة ، لانها تعلم من هذا انها لم تشغل قلبه كله ، وهى تأسى على كل ما يفوتها من شواغل ذلك القلب ولو لم تكن ثمة منافسة محذورة

وتغار المرأة من المرأة الجميلة وان لم تنافسها على رجل تحبه ، وتغار من شريكتها فى رجلها كائنا ما كان حظها من الجمال ، وتغار من كل مزية غير الجمال ما كان فيها سبيل

الى الحظوة فى القلب الذى تريده لها ولا تطيق المزاحمة عليه

و « الأنثى الغيرى » فى جميع هـذه الألوان من الغيرة النسائية ماثلة هنالك فى سيرة عائشة كما روتها هى وكما رواها غيرها ؛ ما من فارق بينها وبين سائر النساء الا الأدب الذى ينبغى لها والحق النبوى الذى هى جاهدة جهدها ان توقره وترعاه

كانت السيدة خديجة متوفاة منذ سنوات يوم بنى النبى بالسيدة عائشة

ولكن السيدة عائشة كانت تغار منها غيرة لم تنطو على مثلها لشريكاتها اللواتى يعشن معها ، لأنها شغلت قلب النبى بعد وفاتها فلم يزل يذكرها ويحب لحبها من كان يزورها أو يراها

وكان عليه السلام يبر بعض العجائز فسألته السيدة عائشة فى ذلك فقال : ان خديجة اوصتنى بها ... فقالت مغضبة : خديجة . خديجة .. لكأنما ليس فى الأرض امراة الا خديجة

وعلى حلم رسول الله ربما غضب احيانا من ثورتها على ذكرى خديجة ؛ فغضب فى هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأمها ـ أم رومان ـ عندها فقالت له أمها : يا رسول الله ! مالك ولعائشة ؟ انها حديثة السن وانت احق من يتجاوز عنها . فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتبا وهو يقول لها :

الست القائلة كأنما ليس على وجه الأرض امراة الا خديجة !

وسألته مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيرا منها ؟ فأسكتها قائلا : « والله ما أبدلنى الله خيرا منها . آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها »

اما شريكاتها اللواتى كن يعايشنها فى بيت النبى فربما كانت تغار من احداهن لطعام يستطيبه النبى عندها فضلا عن الغيرة من الجمال او الملاحة

تعود عليه السلام أن يستطيب العسل الذى تهيؤه له زينب بنت جحش وهى من أجمل امهات المؤمنين وأحظاهن عنده . فأجمعت رايها مع صديقتها حفصة بنت عمر أن يبغضاه فى عسلها وقالت فيما روته عن نفسها : « . . فتواطأت أنا وحفصة أينا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ؟ وهى طعام من صمغ حلو ولكنه كريه الرائحة ، ولم يكن أبغض الى النبى عليه السلام من رائحة كريهة . . . فلما دخل عندها رسول الله قالت : انى أجد منك ريح مغافير . قال : لا . ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود اليه !

وقد عرفت زميلتها السيدة صفية بجودة الطهى ، وهى

فى الاصل اسرائيلية من اهل خيبر . فنفست عليها السيدة عائشة هذه الاجادة ولم تكتم غيرتها منها بل هى التى روتها ومن حديثها عنها عرفناها . قالت : « ما رايت صانعة طعام مثل صفية . صنعت لرسول الله طعاما وهو فى بيتى فأخذنى افكل ـ اى قشعريرة ـ فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الاناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال : اناء مثل اناء وطعام مثل طعام »

وهذه غيرتها من زميلات لم يجهرن لها بالمنافسة والمغايظة. وهى بالبداهة دون غيرتها من الزميلات اللواتى كن ينافسنها جهرة ويكاشفن النبى عليه السلام بالشكوى من تفضيلها عليهن فى المودة والحظوة وعلى راسهن ام سلمة التى شهدت على نفسها والنبى يخطبها انها غيور لا تطيق المنافسة ، فكان عليه السلام يجاملها ليذهب غيرتها ، وتغضب عائشة من هذه المجاملة على علمها بمكانتها عنده . قالت :

دخل على يوما رسول الله عليه وسلم فقلت :

أين كنت منذ اليوم ؟

قال : يا حميراء كنت عند أم سلمة

قلت : ما تشبع من أم سلمة ؟

فتبسم . ثم قلت : يا رسول الله الا تخبرنى عنك لو انك نزلت بعدوتين احداهما لم ترع والاخرى قد رعيت ايهما كنت ترعى ؟

قال : التى لم ترع !

قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك . كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل غيرى . . .

فتبسم عليه السلام

واذا كانت أكلة او شربة عسل تستطاب عند احدى الزميلات ، او مجاملة لاحداهن جبرا لخاطر ومداراة لغيرة ـ تثير هذه المنافسة وتغرى بهذه المؤامرة فليس من العسير ان نفهم كيف تكون الغيرة التى تثيرها الذرية المحبوبة المرقوبة حين يرزقها النبى من احدى زوجاته وقد حرمها من سائرهن سنوات ، وهو شديد الكلف بها والتطلع اليها

تلك اذن غيرة لا تمسكها الحدود ولا تكبحها المجاملات

وقد ثارت ثائرتها يوم ولد له عليه السلام ابنه ابراهيم من مارية القبطية ، وكانت على هذه المزية التى امتازت بها جميلة بيضاء ، تغار منها الزميلة لجمالها وصباحتها فوق غيرتها منها لهذه الأمومة التى تفردت بها بين تسع نظيرات

قالت كتب السير : وغارت زوجات النبى ولا كعائشة

لأن عائشة رضى الله عنها كانت صاحبة المكانة الأولى التى ترفعت اليها « مارية » بأمومتها ، فهى أحق بالغيرة من تلك المكانة من سواها

ولا ريب فى حب عائشة للنبى ولا فى سرورها ورضاها

بما يسره ويرضيه ؛ ولكننا نطالب الطبيعة الانسانية ـ والطبيعة النسوية ـ بما يرهقها اذا نحن ترقبنا منها أن تسر بما يثير غيرتها ؛ وان تحب الرجل ثم تسر بما عسى ان يصرف حبها عنه ؛ او ينقص سهمها فيه

فمن الطبيعى ان تسر المرأة بسرور الرجل لأنها تحبه

ومن الطبيعى كذلك أن تغار من السرور الذى يحببه الى غيرها ، لأنها تحبه

وقد يفترق القلبان فى لحظة من اللحظات لأنهما مقتربان أشد اقتراب

وهذا الذى حدث عند مولد ابراهيم من مارية القبطية ، وهى فتية جميلة رضية ؛ يدنيها من قلب النبى شتى المزايا ، واولاها هذه المزية التى تربى على كل مزية

فلما رات عائشة فرح النبى بالوليد المرموق وأحست شغف النبى به جاهدت نفسها ان تغالب غيرتها فلم تقو على هذه المغالبة ، وقال لها يوما : انظرى الى شبهه ! .. فلم تملك لسانها ان تقول : ما ارى شيئا .. وربما اعجبه نمو الوليد ولفتها الى بياضه ولحمه وترعرع جسمه ، فيعز عليها ان تعجب مثل عجبه ، لانه هكذا كل طفل يشرب من اللبن ما يشرب ابراهيم !

وكان غضب النبى من غيرتها غضب تأديب وتهذيب ، لا

غضب سخط وتأنيب . فكان يعذرها فيما يمسه ولا يعذرها فيما ينبغى لها أن تتوخاه أو تتحراه ؛ أو فيما يحسن بالمرأة التى أحبها هذا الحب أن تقلع عنه وتعرف موضع الملامة فيه

فقلما لامها فى شىء يمسه من غيرتها

ولكنه كان لا يسكت مرة عن مؤاخذاتها على فلتات هذه الغيرة التى تمس بها اناسا آخرين . فيؤاخذها مؤاخذة المؤدب الرفيق ولا يدع لها ان تعيد ما آخذها عليه

عابت امامه زوجته السيدة صفية فذكرت من عيوبها أنها قصيرة . فكره أن تمضى فى حديثها وقال : يا عائشة ! « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته »

وحكت امامه انسانا فلم يعجبه ما يعجب الزوج المحب من هذه الفكاهة التى تسوغ وتستلمح فى ذوق كثيرين ؛ ونهاها أن تحكى الناس حكاية استهزاء

▭

ومن « الأنثويات » الخالدة فى طبيعة المرأة دلالها ومغاضبتها وهى أشوق ما تكون الى المصالحة وتقصير امد المغاضبة

وللسيدة عائشة نوادر شتى فى هذا الدلال الذى شابهت

به كرائم قومها وزادت عليهن بما بلغته من المنزلة التى لم يبلغنها

غضب النبى من نسائه لكثرة منازعاتهن والحافهن عليه بطلب المزيد من النفقة والزينة ، فأقسم ليهجرهن شهرا وشاع بين المسلمين أنه طلقهن جميعا

وكان لهذه الاشاعة بين المسلمين رجة أى رجة ؛ لأن تطليق النبى زوجاته جميعا هو أكبر طارق يتعرض له عليه السلام فى بيته ويمتد أثره الى القبائل والبيوت التى كانت تجمعه بها صلة المصاهرة . وفى وسعنا ان نتخيل تلك الرجة بين الصحابة اذا علمنا أن صاحبا لعمر بن الخطاب سمع بالنبأ ليلا فأسرع الى بابه يدقه دقا شديدا ويسأل عنه فى فزع : أثم هو ؟ فلما خرج اليه قال صاحبه : حدث أمر عظيم . قال عمر : ما هو ؟ اجاءت غسان ؟ قال : لا . بل اعظم منه واطول . طلق النبى صلى الله عليه وسلم نساءه

ثم تحرى عمر الخبر من رسول الله فعلم أن الأمر دون ذلك وان رسول الله انما اقسم ليهجرهن شهرا . فما لبث أن استأذنه عليه السلام ليبادر الى المسلمين المجتمعين بالمسجد فينقل اليهم حقيقة النبأ ويذهب عنهم ما خامرهم من الأسى لما بلغهم من طلاق نسائه

ولا ريب أن نساء النبى أنفسهن كانت بينهن للنبأ رجة أشد عليهن من هذه الرجة ؛ وكان لهذه العقوبة التى لم

يعاقبهن بمثلها من قبل أثر فى قلوبهن ابلغ من هذا الأثر

فلما انقضت الأيام التى أوعدن بها بدأ بالسيدة عائشة فدخل عليها وهى اشوق ما تكون الى لقائه . فماذا سمع منها اول ما سمع ؟

قالت : يا رسول الله اقسمت ان لم تدخل علينا شهرا وقد دخلت وقد مضى تسعة وعشرون يوما !

فقال عليه السلام : ان الشهر تسعة وعشرون

اتراها كانت تنتظر استيفاء الثلاثين ولا تقنع بالهجر تسعة وعشرين يوما ؟

كلا . فقد عدتهن يوما يوما وعلمت ساعة دخول النبى كم مضى وكم بقى على ظنها من ايام العقوبة . ولكنها الأنثى الخالدة كما اسلفنا ، ولا بد للأنثى الخالدة فى هذا الموقف من مكاتمة ولا بد لها من دلال

▭

ولغط المشركون بقصة الافك التى سخفوا بها غاية السخف ، فلم تعلم بها السيدة عائشة الا بعد شهر من شيوعها وهى تملأ ارجاء المدينة

فلما سمعت بها ذهبت الى بيت ابويها تسألهما عن هذه القصة التى لم يخبرها احد بشىء عنها وهى فى بيت زوجها الكريم

قالت السيدة عائشة بعدتفصيل ماسمعت : « فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال : أما بعد ياعائشة فقد بلغنى عنك كذا وكذا . فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت المت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه . فان العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه

« فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ! فقال : والله ما أدرى ماذا اقول لرسول الله

« فقلت لأمى : أجيبى عنى ، فقالت كذلك . والله ما أدرى ماذا اقول لرسول الله

« قلت ــ وانا جارية حديثة السن لا اقرأ كثيرا من القرآن ــ انى والله لقد عرفت انكم سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به ، فان قلت لكم انى بريئة ، والله يعلم انى بريئة ، لا تصدقونى . ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم انى بريئة ، لتصدقوننى ... وانى والله ما أجد لى ولكم مثلا الا كما قال ابو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

« ثم تحولت فاضطجعت على فراشى

« ... فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من اهل البيت أحد حتى انزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما كان

يأخذه من البرجاء عند الوحى ؛ حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان ــ اى الدر ــ من العرق فى اليوم الشاتى

« فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها ان قال : ابشرى يا عائشة ! اما الله فقد براك

« قالت أمى : قومى اليه

« قلت : والله لا أقوم اليه ، ولا أحمد الا الله . هو الذى انزل براءتى »

ولو تجمعت الأنوثة الخالدة فى امرأة واحدة لما كان لها من شأن هو أشبه بها من شأن عائشة فى هذه القصة : ضنوا عليها بكلمة التبرئة التى تلهفت عليها فهى تدعهم يضنون بها كما يشاءون ؛ ويسكتون أو يتكلمون كما يريدون وتضطجع على فراشها ... ثم تجىء التبرئة التى تلهفت عليها ، فيجىء معها الغضب والادلال بالعزة المجروحة

« قومى اليه ... لا والله لا أقوم اليه ! » ... لم ؟ أهو الذى اغضبها ؟ كلا . ولكنها غضبى ولا بد للغضبى من استرضاء . ومن اولى من الزوج الكريم باسترضائها !

وكم كانت للزوجة المحبوبة من مغاضبات تعرض بها ولا تظهرها ويبتسم لها النبى لأنها لا تخفى عليه وهى لا تعنى بها أن تخفى عليه !

قال لها عليه السلام يوما : « « انى لأعلم اذا كنت عنى

راضية واذا كنت على غضبى . فقالت : من اين تعرف ذلك ؟ قال : اما اذا كنت عنى راضية تقولين لا ورب محمد ! واذا كنت على غضبى قلت لا ورب ابراهيم . قالت أجل والله يا رسول الله . ما اهجر الا اسمك . »

أليس هو أسلوب الأنثى الخالدة فى مغاضبتها وهى تحب من تغاضبه وتعرض له بالغضب وتعنى أن يفهمه كأنه التصريح الذى لا مواربة فيه

ولا بد من المواربة على كل حال

▭

وما من سمة فى الانوثة الخالدة غير هذه السمات الا وجدت السيدة عائشة وقد صدقت فطرتها فيه ، وان كانت لتروض نفسها تلك الرياضة العالية التى تجمل بزوجة محمد وبنت الصديق وأم المؤمنين

فاذا عرضت مناسبة للسن فليس احب اليها من أن تقول : وكنت جارية حديثة السن ، او حدث ذلك لجهلى وصغر سنى ، وربما راقها أن تختار من الروايات التى ذكروها لها عن سنها اقرب تلك الروايات الى التصغير واولاها أن تميزها بين زميلاتها بميزة الشباب

وقد تكون وحدها فى بيتها فتعجبها ثيابها وتحب أن تنظر اليها . قالت : « ولبست ثيابى فطفقت انظر الى ذيلى

وانا امشى فى البيت والتفت الى ثيابى وذيلى . فدخل على ابو بكر فقال : يا عائشـــة ! اما تعلمين أن الله لا ينظر اليك الآن ؟ قلت : ولم ذاك ؟ قال : أما علمت ان العبد اذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فنزعته فتصدقت به . قال أبو بكر : عسى ذلك ان يكفر عنك »

وهى عائشة كاملة فى هذه القصة الصغيرة : هى حواء التى تحب أن تنظر الى زينتها ، وهى ام المؤمنين التى تحب ان ينظر الله اليها ، وهى هنا ايضا حواء تطمح الى زينة أعلى واغلى

▭

ولن تعوزنا اســـباب الاهتمام بحياة كهذه الحياة ، لانها المراة العربية ، والمراة المسلمة ، والمراة الخالدة فى كل زمان